

## يوم عرفة : لتعارفوا

بقلم

أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان

### التعارف في بناء أمة الصدر الأول:

التعارف في الإنسانية هو ضرورة روحية، يذوب معها جميع حواجز العنصرية، والألوان، والأنساب، واللغات.

يقول تعالى: (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن

أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ) سورة الحجرات {13}

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) سورة الروم {22}

(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ

وَمَوَالِيكُمْ) سورة الأحزاب {5}

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا فضل لعربي على

أعجمي، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى" أخرجه أحمد : 23536 ،

"وسلمان منا آل البيت" رواه الحاكم في المستدرک : 598/3، والطبراني :

261/6، ونحن نعلم أن سلمان فارسي ليس من آل البيت نسباً، ولكن إيماناً

وصلاحاً .

"يا معشر قريش لا تأتوني بأنسابكم ويأتوني بأعمالهم"

وعنه صلى الله عليه وسلم في وصية حجة الوداع:

( يا معشر الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد) رواه البخاري .

ورغم كل هذا نرى جمهور "المسلمين" حتى هذا اليوم يمارسون الكثير من ألوان العنصرية والاستعلاء على كل من هو ليس أعلى منه مكانة ونسباً .  
والله يقول: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ

الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) سورة الإسراء {70}

وهو القائل جل جلاله: { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } الزخرف {32}

ومن الواضح أن هذا يعني أن تفاوت القدرات لا يتعارض مع تساوي الكرامات، ومن الواضح أيضاً أن التكافل والتعاون والتراحم جزء لا يتجزأ من تحقيق الكرامة الإنسانية، فليس مكرماً من يمد يده عن حاجة.

وهذا ابن الخطاب رضي الله عنه يقول: (سيدنا أعتق سيدنا) يعني أبا بكر رضي الله عنه، وبلال بن رباح العبد الحبشي المؤذن الذي لا تقاس قدراته بقدرات "ال خليفة" أبي بكر رضي الله عنه، ولكنهما يتساويان في الكرامة.

وهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسأل أبا بكر في عام العسرة فيقول له: (بم تصدقت يا أبا بكر؟ فيقول: تصدقت بكل مالي . فيقول له النبي (صلى

الله عليه وسلم): فماذا تركت لأبنائك؟ فيقول سيدنا أبو بكر: تركت لهم الله ورسوله.

واعتبر البعض أن هذه التضحية تدل على عظم إيمان أبي بكر . والحقيقة أن عظم إيمان أبي بكر ليس موضوع شك أو تساؤل ، ولكن المعنى الكامن لما قاله أبو بكر رضي الله عنه في هذا المقام، هو أنه ترك لأبنائه قبل كل شيء وبعد كل شيء الله سبحانه وتعالى ثم رسول الله بصفته رئيس الدولة ، ولذلك هو لا يرضن بشيء من ماله في عون إخوانه المسلمين .

ولو أن أبا بكر – كما يحدث اليوم – بيننا، وقد أمسينا أفراداً يتكالبون على اللقمة، كل لذاته ، وليس منا من يجد في حوجته عوناً ولا رعاية من أحد، وهذا هو حالنا أبناء الأمة اليوم، حيث ليس منا إلا ما ندر من هو سند لأي أحد يمد يده طلباً لسد جوعته وسقمه - لما أعطى أي شيء من ماله ، والسبب أنه يعلم أنه لا عون ولا سند له إلا ذاته وما لديه من مال كسبه وفي حوزته، لا يشارك فيه أحد، ولا ينفق منه على أحد.

لقد تصدق أبو بكر رضي الله عنه وأمثاله من رجال الصدر الأول بكل ماله أو بجزء ماله، لأنه يعلم أنه إن أصابته، أو أي أحد من أهله حاجة ، لكفاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي هو رأس الدولة.

ولذلك لا غرابة أن نرى هذا العطاء السخي، وهذا التكافل المخلص نجد الأنصار يتقاسمون أموالهم، بل وزوجاتهم – إن اقتضى الأمر- مع إخوانهم المهاجرين الذين هاجروا إلى "المدينة المنورة" حفظاً لدينهم وعوناً لإخوانهم في المدينة، تاركين خلفهم أموالهم وديارهم ، ليجدوا لدى إخوانهم الأوس

والخزرج إخاءً وتكافلاً لا يفرق فيه بينهم – مهاجرين وأنصار- ديار ولا لون ولا عرق ولا أنساب .

بذلك كان أبناء العهد الإسلامي الأول حقاً أمة واحدة لا يألوا أحد فيها العون والعطاء لكل ذي حاجة.

ولهذا فإن من يفقد أباه استشهاداً أو موتاً وهو "يتيم قاصر"، سيجد من القادرين من يضحى بالزواج من الأرامل مَنْ هُنَّ "أمهات الأيتام" صوناً لكرامتهم، ولبذل المال والعناية والرعاية تضحية وحملاً للمسؤولية لإعالة هؤلاء اليتامى وصون كرامة أمهاتهم، هذا اللون من التكافل يجعل المسلم يبذل نفسه في سبيل خدمة أمته، ولا يخشى الموت والقتل دفاعاً عنها.

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثًى

وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا

تَعُولُوا) سورة النساء {3}

### عرفة لتعارفوا:

ومن صور تجسيد الوحدة الإنسانية للأمة الإسلامية بحق على -عهد النبوة والخلافة الراشدة- والذي أخطأنا وشوهنا فهمه؛ هو لقاء أبناء الأمة في فريضة الحج، من كل صوب وحدب، وبشكل مرئي وملموس في أنهم أمة واحدة - رغم اختلاف الديار والألوان واللغات والقسمات.

ولذلك فإنه من غير المفهوم، أننا نجد أمتنا من بعد ذلك العهد، تفسر لقاء الحجيج من أبناء الأمة في يوم عرفة، بشكل "أسطوري خرافي" غافلة عن

معناه الحقيقي المرئي والملموس، ليقولوا: إن ساحة عرفة سميت عرفة لأنها الموقع الذي التقى فيه أبونا آدم بأما حواء ، ولذلك سمي ذلك المكان "عرفة".  
ورغم أنه لا يخفى على أحد أن أما حواء خلقها الله من آدم، ولذلك وسوس الشيطان لهما لأنهما زوجين لا يتفرقان.  
يقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) سورة النساء {1}

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) سورة الروم {21}

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ\* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} سورة البقرة، الآية 35-36

ولما كنت من أبناء "مكة المكرمة" والذي كان يصحب والديه إلى الحج كل عام منذ ولادته حتى سن الثامنة عشرة – حين توجه إلى مصر وسواها طلباً للعلم – فقد كان ذلك الطفل، يجلس على قارعة الطريق يرقب الحجيج في ساعة "النفرة" من عرفة إلى المزدلفة ، وهو يتفحص وجوههم على اختلاف

ألوانهم وسماتهم، يرتدون قطعتين من القماش الأبيض، وقد عريت رؤوسهم بحيث لا تستطيع أن تفرق بين وزير ولا مدير ولا خفير ، يحملون أطفالهم، ويصحبون نساءهم، في لباسهم الأبيض، متسترات "محجبات" .  
ومن يشاهد هذا المنظر، ويتمعن فيما يرى، ويتدبر دلالاته، ومعناه، فلا بد له أن يدرك على الحقيقة لماذا سميت عرفة .

### لقاء الإخاء والمودة والتراحم:

ففي هذا الموقف العظيم، يأتي البشر من كل حذب و صوب بألوان وسمات ولغات مختلفة، لا يجمعهم إلا أنهم إخوة مؤمنون ، وأنهم رغم كل الاختلافات إخوة في الإنسانية، وأنهم جميعهم أمة واحدة في الإنسانية وفي الدين ، لا مجال في إخائهم الإنساني والديني للعنصرية ، ولا للاستعلاء بالمال، أو الجاه، أو الأنساب .

يقول الله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) سورة الحجرات {13}  
{ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} سورة الأحزاب الآية {5}

فأين هذا المعنى السامي والغاية العظمى للحج في عرفات؟! التي يستشعر فيها المسلمون مشاعر الإخاء والود والتراحم، بغض النظر عن أي اعتبار

آخر، وليستشعر وينعم كل واحد وكل شعب منهم بالكرامة والإخاء الإنساني والإسلامي.

يقول الله سبحانه وتعالى:

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ

عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} سورة الإسراء {70}

فالكرامة لكل إنسان، والرزق والتكافل حق لكل إنسان، فمن لا يجد لقمته ويمد يده تسولاً فإنه لا كرامة له، وغير ذلك، هو تشويه لمعاني الوحي وآياته، وسوء فهم للفطرة السليمة، فلا غرابة حين يفقد "المسلمون"، هذه المفاهيم، وهذه المعاني، في واقع حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، فلا بد عندئذ أن يصبحوا "أفراداً" لا "أمة"، تتشوه علاقاتهم، وتتمزق وحدتهم، وينحط أدائهم، وتنهار حضارتهم، ويصبحون عوناً لأعدائهم على أنفسهم.

تأبى العصي إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت آحاداً.

هذا التحريف وهذا التخريف، في فهم دلالة كلمة "عرفة" رغم وضوحها، لمن يتدبر، يقودنا إلى إشكالية أخرى أكبر، تتعلق بتشويه العلاقات الإنسانية ذاتها، وللأسف أن ينسب هذا التشويه إلى الدين، والدين منه براء، وإنما هي مفاهيم وتقاليد وواقع أناني عنصري يسيء إلى الدين، ويصد الناس عنه، ويدفعهم بعيداً عن الإسلام، نحمل نحن "المسلمين" وزره، لما سببناه من تشوه رؤيتنا الكونية الحضارية القرآنية ومفاهيمنا الاجتماعية الإنسانية الروحية على كل صعيد.

لهذا فإننا رغم كثرة عدد "المسلمين" اليوم، إلا أننا أمسينا من أكثر الأمم تخلفاً وضعفاً وضلالاً وهواناً، ليس لنا عطاء في الحياة، ونحن

أدعياء "الخلافة" أو "الاستخلاف"، وكل ما نتطلع إليه في الحياة، ليس إلا لقمة عيش لكي نسد بها الرمق، ونحن في انتظار الموت، فلا نعمل، ولا ننتج، ولا نسهم حقاً في مواكبة العطاء والسعي والإحسان والإتقان.

وهكذا أصبحنا في مجملنا عالية على الآخرين، ومجمل ما يميز واقع ثقافتهم، ونظمهم التعليمية، ومفاهيمهم التربوية، هو الجمود، والخرافة، والجهل، والمرض، لتتصور الشعوب فقراً، وجوعاً، ومرضاً، ولتنحني رؤوسهم، أمام أعدائهم، ضعفاً، ومهانة، ولا يملكون إلا أنهم مجرد ورثة حضارة منهاره ليس لهم منها اليوم إلا التفاخر بالذكريات.

### دور المفكرين في استنقاذ الأمة:

ولذلك فإنه لا بد لعلماء الأمة، ومفكريها، إمعان في النظر، والبحث، في كل جانب من جوانب واقع الأمة، لإدراك سبب التشوه الذي لحق بعقيدة الأمة ورؤيتها الكونية وممارساتها الاجتماعية الحياتية، حتى يمكن أن تصبح الأمة المسلمة أمة خُلفاء الأرض، ومثال الهداية والعدل، والإخاء والتكافل والإعمار والإتقان والسلام.

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ

الْفَاسِقُونَ) سورة آل عمران {110}



ولهذا فإن من المهم أن ندرك، أن عرفة سميت عرفة لأنها ساحة لقاء الإخاء الإنساني، والإسلامي العظيم، وليس مجرد أسطورة، هي دعوى لقاء أبينا آدم، وأمنا حواء، في ساحة أرض عرفة التي هي نموذج مؤسف لما سيطر على ثقافتنا من الأساطير والخرافات التي تركت، وما تزال تترك من آثارها البلاء العظيم الذي انتهى بالأمة "الإسلامية" إلى ما انتهت إليه اليوم.

وبالله العون إنه على كل شيء قدير . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.